الحبالصة

محمود الفرعوني

الحبالصة

محمود الفرعوني

دار الملايين للنشر
إصدار ٢٠١٩

مراجعة لغوية

أ. محمد يوسف أحمد محمود

للتواصل مع الكاتب

البريد الالكتروني mahmoud_phraon@yahoo.com

هاتف: ٠١٢٢٤٩٣٤٥١٧

إلى روح أمي تحيه عبد الحكم حفيدة ايزيس التي علمتني أن حب الناس من حب الله والسعادة الحقيقية في إسعاد الآخرين وأن جميع الناس متساوون لا فرق بينهم إلا بالفضيلة رغم أنها لم تكن تقرأ ولا تكتب.

إلى روح أبي الذي علمني أنه لا يمكن أن تكون سعيدًا إذا تصرفت على عكس قناعاتك فالشجاعة هي احترامك لذاتك في قول وفعل ما تراه حقًا حتى لو اغضب منك الكثير من الناس.

إلى كل أهلي في الحبالصة بلد الشهامة والحب والبراءة.

إلى روح رفقائي الأبطال شهداء ثورة ٢٥ يناير المجيدة.

إلى زوجتي الحبيبة وفاء.

عندما يصير الزمن إلى خلود

سوف نراك من جديد

لأنك صائر إلى هناك

حيث الكل في واحد

انهض... انهض يا أوزوريس

أنا ولدك حورس

جئت أعيد لك الحياة

لم يزل لك قلبك الحقيقي

قلبك الماضي...

«من نشيد الخروج إلى النهار لأجدادنا القدماء»

«طوفت بالكثير من البلدان لكني لم أرى شهامة وكرمًا وطيبة وإخلاصًا وحبًا لبعضهم ولوطنهم مثلما وجدت أهالي الحبالصة، إنهم رائعون جميلو الروح معجونون بالمحبة واعين بمسؤوليتهم التاريخية وفي أعماق جيناتهم تكمن حضارة أجدادهم الأقدمين ، فإذا ما استعين بقدراتهم العقلية والروحية الفذة فلن تستطيع قوة على وجه الأرض أن توقف تقدم الأمة المصرية وسيادتها على العالم».

«أحد العلماء الأوربيين وهو يقف بجوار حجر شعبان منبهرًا»

١

استيقظ من نومه مبكرًا على صياح الديكة فنظر في هاتفه فوجد أن الساعة السادسة صباحًا، وفي الحقيقة لم يكن قد نام قط من التفكير في هذا اليوم الموعود بعد أن رأى في المنام أنه يقف على شاطئ النيل يهتف مع رفاقه، كان المكان خاليًا من أي بشر سواهم، الظلمة كانت مخيفة وصوت الرياح القوي وهو يعصف بالمكان رهيبًا وتقشعر منه الأبدان، والنيل كان غاضبًا جدًا بحيث كانت أمواجه تكبر وتكبر بلا توقف، والبرق يضرب في منتصف النيل وهو يضيء الكون بصعقاته، وحبات من الطين اللزج تقذف من مكانها لقوة الرياح وكأنها كانت تصنع إعصارًا.

وفجاه تلاشى كل شيء وأضاءت الشموع فظهرت محكمة فرعونية يقف على منصتها: أمون، ورع، واوزير، وماعت ؛ يصدرون حكمًا نهائيًا غير قابل للطعن بانتزاع علامة العنخ (مفتاح الحياة) من الرئيس.

حيث قرر أمون بأنه لوث مياه النيل وفقدت الأمة المصرية في عهده هويتها وبوصلتها الحضارية، وأعلن رع أنه حجب شمس ونور حضارتنا العظيمة عن العالم، بينما حكم أوزير بأن عهده الذي استمر لثلاثين عامًا وصل إلى قمة الفساد والديكتاتورية فتحولت الأمة المصرية من أمة عظيمة تشع نورًا وعلمًا وحضارة متمسكة بقيم الحق والخير والجمال إلى أن تتسول وتصبح عالة على

البشرية وينتشر بها القبح والكراهية لكل ما هو جميل في الحياة، وحكمت ماعت بأنه انتهك قيم العدالة وسادت البلطجة والطائفية والقبلية والظلم الذي أصبح من سمات عصره.

لم يستطع الرئيس إنكار التهم الموجهة إليه، بيد أن أحد مؤيديه وقف يدافع عنه بالقول: « حتى الجنين في بطن أمه يؤيد الرئيس «، كما اصطف بعض قيادات حزبه ليدافعوا عنه بالتطبيل والأغاني:

يفتح قلبه لكل حبايبه قاعدين على المصطبه وياه

لا هيدينى ولا يرقينى ولا فيه مصلحة بينه وبيني

إلا بلدنا وحب بلدنا وبقولها ورزقي على الله

اخترناه وبايعناه وإحنا معاه لمشاء الله

مما أودى بهيئة المحكمة إلى أن تضيف للائحة الاتهام تهمة مضاعفة جرعة الكذب والتملق والنفاق نتيجة الخوف والقهر الذي اتسم به عهده وهي أخطر التهم التي أدت لتأييد الحكم.

ولم يفكر أحمس ما إذا كان هذا الحلم كرؤية النبي يوسف بن يعقوب، أم مجرد حلم من أحلام اليقظة، أم أنه متنفس اللاوعي المكبوت كما يقول سيجموند فرويد.

ففزع من نومه وغير ملابسه وبالرغم من أن المسافة من قريته الحبالصة إلى محطة قطار القوصية لا تستغرق أكثر من ١٠ دقائق، إلا أن أحمس عبد السيد خرج مسرعًا راكبًا التوكتوك من أمام بيته وكأن العالم كله يتلهف لانتظاره...

وكان من عادة أحمس ألا يخرج من بيته قبل أن يفطر بالفول والطعمية أو الكشك الذي يصنعه الحبالصاوية من القمح واللبن الحامض ليحتسي الشاي بعدها ويدخن، إلا أن هذا اليوم لم يشعر بالجوع إطلاقًا.

فقد كان يشعر بجوع من نوع آخر.. جوع إلى الحرية التي لطالما حرم منها.. والعدالة التي يشعر بافتقادها.. والاشتياق إلى أن يهتف مع رفاقه.

أشعل سيجارته الكليوباترا وهو راكبًا التوكتوك يتمعن في جمال الطبيعة حوله باشتياق ويتنفس هواءها الذي أحس لأول مره بطعمه ورائحته المختلفة.

أخذ يقلب نظره يمينًا ويسارًا.. فكانت حقول القمح الذهبية على يمينه، ومياه الترعة الواصلة من الإبراهيمية الزرقاء الفاتحة تتدفق على يساره بغزارة وهي تتلألأ تحت شمس الصباح.. وعلى حافة شاطئيها تسمع نقيق الضفادع، وصرير الجنادب، وصديق الفلاح أبو قردان يملأ الحقول، والعصافير تزقزق فوق أشجار الصفصاف والجميز والنخيل والتوت وكأنها تعلن عن بدء عهد جديد... عهد حلم به أحمس ورفاقه كثيرًا.

٢

لم يكن أحمس عبد السيد إلا فردًا من أفراد قرية نائية في قلب الصعيد تسمى الحبالصة... كانت مبانيها مبنية من الطوب اللبن، ومشيدة على ضفة ترعة تنساب من الترعة الإبراهيمية ذي مياه صافية كصفاء قلوبهم... كانت قرية منسية دائمًا من أية خدمات حكومية، وضائعة في الزمن مثل باقي القرى المصرية حيث كل أيامها متشابهة.

كان أهالي القرية مثال للطيبة والمودة والمحبة فيما بينهم حتى السنوات الأخيرة، حيث سافر معظم شبابها للخليج بعد أن تقطعت بهم السبل للبحث عن فرص عمل، فانقطع الود بين الناس، وطغت الماديات على العلاقات الاجتماعية، وانتشرت أفكار الجماعات المتطرفة، فهدموا مقام الشيخ محمِد، ومنعوا البهجة والغناء في الأفراح، والغوا إقامة العزاء باعتباره بدعة، وحرموا أعياد المولد النبوي وعيد الأم، كما حرموا حتى التحيات المعتادة مثل صباح الخير والعوافي، كما حرموا السينما وكافة الفنون الأخرى، في الوقت الذي حللوا فيه تجارة الآثار والعملة والسلاح.

وقد كان أهالي الحبالصة يوفون بالنذور في طلعة الدير المحرق، وعند الشيخ أبو العيون، وإذا أحس أحدهم بالظلم انتظر حتى تأذن الشمس بالمغيب مع اصطباغ الأفق باللون الأحمر، ثم جاء بعظمة ناشفة ودقها عند مقام الشيخ محمِد وقرأ عدة ياسين لعل الله أن يأخذ حقه ممن ظلمه.

فكانت زياراتهم لمقامي الشيخ محمِد والشيخ مساعد قبلي وغرب البلد كل جمعة مساءً يوقدون خلالها الشموع ويلتف الأطفال يغنون ببراءة:

واحد اثنين سرجي مرجي — أنت حكيم ولا تمرجي

أنا حكيم الصحية — العيان أديله حقنه

والمسكين أديله لقمه

حج حجيجه بيت الله — والكعبة ورسول الله

نفسي أزورك يا نبي — يلي بلادك بعيدة

فيها أحمد وحميده

حميده ولدت ولد — سميته عبد الصمد

مشيته ع المشايه — خطفت رجله الحداية

حد يا حد يا بوز القرد — أنت ولد ولا بنت

أنا ولد ذي القرد

حلفت أمك يا جمل — ما تسقيك إلا اللبن

والعين الجمل.. الرااايبة — الرااايبة.. الرااايبة.. الرااايبة

بينما يلعب الشباب السيجة والاستغماية والتيخه وهم يطلقون النكات البريئة أو مواويل الأفراح:

قالت لي بحبك قولتلها قديش

قالت لي بحبك قد العسل في العيش

على مهلك علي شد القميص بالشويش

علشان أنا جسمي ناعم ما بيحمل الخربيش

وتتجمع النسوة عند مقام الشيخ مساعد بعد أن يخبزون الخبز الشمسي الطازج في الأفران الطينية والبتاو بوضع حشرة الدعسوقه على ظهر اكفهم اليمنى مرددين لثلاث مرات « الحج قريب ولا بعيد « فإذا خرجت الحشرة فوق زراعهم يعتقدون أنهم لن يحجوا هذا العام، أما إذا وصلت لصوابع يدهم يزغردون لاعتقادهم أن في ذلك بشرى بقرب موعد حجهم. ومن يؤدي فريضة الحج يرسم على بيته صورة الكعبة ويكتب تحتها أنه حج إلى بيت الله الحرام يوم كذا في سنة كذا، دون أن يعوا أن تلك كانت عادة أجدادهم الأقدمين (حيث كان يكتب المصري القديم على بيته أنه حج إلى أبيدوس عند قبر أوزير).

بينما يلعب الأطفال والشباب كرة القدم في فناء المدرسة الوحيدة بالقرية أو على وابور المياه عصر كل يوم، وإذا وجدوا أمامهم طالب أزهري يمزحون معه مرددين:

شد العمة شد تحت العمه قرد

شد العمة يا أستاذ تحت العمة صفيحة جاز

وعندما تبدأ الشمس بالميل نحو المغيب، يبدأ كبار السن من الرجال لعب الدومنيو على مقهى صغير بجوار الشيخ مساعد غرب البلد يتناقشون في تفاصيل حياتهم اليومية، ويحكون لبعضهم كيف أن الأطفال التوأم تتحول أرواحهم لقطط بالليل، فيسرحون على هيئة قطط صغيرة تطوف البيوت بينما أجسادهم تظل كما هي، ويحذرون بعضهم من ضرب هذه القطط أو منع الأكل عنها، أو إيقاظ الأطفال وهم نيام فمجرد لمسهم يموتون لأن أرواحهم تبقى خارج أجسادهم، وبعدما ينتهوا من حكاياتهم يغنون ببراءة:

قالتله شد حيلك يا قليل الحيل دي أرض خضراء ومدكساها الخيل

قالها شد حيلك يا قليلة الحيل ده محراث حديد وما يطلع إلا القلقيل

ياللي ع الترعة حود على المالح

وشوف الحلوة اللي عودها سارح

رجلي بتوجعني... من إيه؟ رجلي بتوجعني من مشي امبارح

إيدى بتوجعنى ... من إيه ؟ إيدي بتوجعني من غسيل أمبارح

راسي بتوجعنى ... من إيه ؟ راسي بتوجعني من لف امبارح

شعري بيوجعني ... من إيه؟ شعري بيوجعني من شد امبارح

وسطي بيوجعني ... من إيه؟ وسطي بيوجعني من رقص امبارح

يا اللي ع الترعة حود ع المالح

بحري يا بحري والهواء بحري بحري

حجر شعبان بحري وشارع الرمش بحري

رن يا صيني على البلاط ده أحنا الحبالصاوية الباشاوات

كان أحمس يسكن بالقرب من حجر شعبان إحدى معالم القرية الذي يفد إليه الناس كل يوم جمعة من كل القرى المجاورة لينالوا البركة بتدحرجهم على الأرض بجواره، وتحتشد حوله النسوة التي تتأخر في الحمل والبنات التي لم تتزوج لعل الله يرزقهن بعريس.

وحجر شعبان أهم حكايات قرية الحبالصة ترددها الأجيال على مر العصور حتى أصبحت حكاية لا تقبل الشك... منها أن هذا الحجر حاول أهل القرية من قديم الزمان أن يقتلعوه فصرخ ونزف دمًا، وأن هناك ديكًا مرصعًا بالذهب يظهر عند الحجر كل ليلة قبل قدوم الفجر إذا استطاع الناس قتله ستفتح كنوز الذهب، لكن لا أحد يستطيع لأنه يختبئ مجرد ظهور الناس.

وتحكي قصص أخرى عن أن تسمية الحبالصة بهذا الاسم يرجع إلى أن ايزيس زرفت دمعة الحب عندما كانت تلملم جسد زوجها أوزير فوجدت أخر قطعة من جسده على حجر شعبان، فانفجر الحب في هذه الأرض المباركة فسميت الحبالصة...وكثيرًا من الحكايات التي تتوارثها الأجيال.

ولم يكن أحمس إلا طالبًا متوسط المستوى التحق عن طريق مكتب التنسيق بجامعة القاهرة حتى انه لم يكن قد وصل للثانوية العامة إلا بالصدفة.

فلم يحصل على مجموع في الإعدادية يؤهله للالتحاق بالثانوية فاتته على درجتين، فالتحق مغرمًا بدبلوم الصنايع، وكان أول أيام دراسته بالدبلوم هو أخر أيامه بها، فقد ظل يلعب كرة قدم في فناء المدرسة حتى الحصة الأخيرة وعندما دخل الفصل متأخرًا سأله المدرس بغضب:

إذا لم تكن تعجبك الدراسة أخرج من هنا حالًا، أما إذا كنت تنوي الاستمرار معنا عليك أن تلتزم ، ولا أراك غدًا إلا وأنت حالق شعرك على الزيرو لأني لا أحب أن أرى تلميذًا حالق شعره كابوريا.

ولم يكن رد أحمس إلا لينبئ بطرده من المدرسة فقد رد بسجيته المعهودة:

دخلت علشان مجبتش مجموع ثانوي وشعري مش هحقله وأنا حر فيه.

بالطبع لم يعجب هذا الرد مدرسه فطرده من الفصل وأقسم انه لن يدخله المدرسة بعد اليوم.

خرج أحمس من الفصل ليبحث عن صديقه عمر الذي كان في السنة الأخيرة في فسم الزخرفة ليحوله إلى أي قسم أخر، وكانت علاقة عمر بناظر المدرسة والمدرسين جيدة بحكم كونه صنايعي بلاط يقدم خدمات للناظر والمدرسين ويعزمهم كل يوم على الشاي والشيشة في مقهى صغير بجوار المدرسة.

بحث أحمس عن عمر في فناء المدرسة فلم يجده فانتظر بجانب مكتب الناظر لعله يجده هناك، فوجد أحد التلاميذ معه أوراق التقديم جاء ليحول للمدرسة فسأله أحمس عن المدرسة التي كان فيها فقال إنها تسمى الثانوية التجريبية وهي مثل الثانوية العامة تمامًا لكنها تقبل بمجموع أقل درجتين، وقد حولت منها لأن نتيجتها دائمًا ما تكون في الشهادة أنه لم ينجح أحد.

تلقف أحمس كلام التلميذ الآخر بفرحة غامرة كطوق نجاة لم يكن يحلم بها وعلم أن المدرسة بالقرب منه، وفي أثناء الحديث أتى الناظر فلم يطلب منه التحويل لقسم أخر وإنما طلب أوراقه فورًا وجرى بها مسرعًا لمدرسة الثانوية التجريبية وبمجرد أن رأى ناظرها الفرحة في عينيه وإلحاحه في التقديم قال له:

نفسك تبقى إيه ؟

رد عليه: أغير كل حاجه في مصر ليكون كل شيء بالحب حتى الثانوية اللي يحب يدخلها يدخلها من غير مجموع.

فضحك الناظر وقال له:

لا تتخلى أبدًا عن الحب والحلم ؛ فالحب هو لغة العالم النقي وبدونه لن يكون للحياة معنى، وعندما تريد شيئًا ما حقًا فإن الكون كله يطاوعك في الحصول عليه وهأنت حصلت على ما أردت لأنك أصررت على تحقيق حلمك، فبدون الحب والحلم تصبح الحياة جحيم لا يطاق.

لكن أحمس لم يكن يحلم بشيء ولم يكن قد قرأ شيء أكثر من المناهج الدراسية حتى التحاقه بالجامعة، وكذلك لم يكن له رأي سياسي أكثر مما ورثه عن أبيه من حبه الشديد لعبد الناصر.

لما التحق أحمس بالجامعة اصطحبه أحد زملائه الوفديين لحضور حفل تأبين

الزعيمان سعد زغلول ومصطفى النحاس بمقر حزب الوفد بالدقي فسمع لأول مرة انتقاد لسياسات الزعيم جمال عبد الناصر الذي كان يعتقد أنه ملهم وحرر مصر ولم يخطئ قط، فخرج من مقر الحزب وهو يصرخ فيهم من أثر الصدمة بأنهم عملاء للاستعمار والصهيونية، فقاموا بتهدئته وأعاروه بعض الكتب الذي رفض أول الأمر قراءتها ثم بدأ القراءة بنية الرد على الأكاذيب مما جعله يبدأ رحلة قراءته، فعلم أن كل ما يعرفه هو أنه لا يعرف شيئًا كما قال سقراط.

وبينما أراد ذات يوم أن يصلي الجمعة بالحسين وجد أمامه مظاهرة خارجة من جامع الأزهر قبل الغزو الأمريكي للعراق يهتفون:

أول مطلب للجماهير غلق سفارة وطرد سفير

جورج بوش اتلم اتلم لنخليها دم بدم

مش عايزين شجب وإدانة عايزين مدفع عايزين دانه

فأعجب بحماسة الهتافات وخرج تلقائيًا للاشتراك في المظاهرة، واستمر بعدها في التظاهر بحرم الجامعة وفي مظاهرة بإستاد القاهرة نظمها الحزب الوطني والإخوان المسلمين وكان يتقدمها فنانين مشهورين ووزعوا عليهم وجبات ومياه معدنية في حراسة وترحيب من الأمن، ثم كانت مظاهرات القضية الفلسطينية فكان يدخل الجامعة مرتديًا الكوفية الفلسطينية ويهتف بالموت لإسرائيل وأمريكا وسط ترحيب من أمن الجامعة دون أن يتعرض له أحد ؛ حتى ذلك الوقت كان يعتقد أن أي مظاهرات هي عمل وطني خالص يلقى استحسان الجميع.

وبدأت انتخابات اتحاد الطلبة فترشح كرئيس للاتحاد ولم يكن أمامه إلا طالب يدعى أسامه عبد العظيم بعد منع الأمن للكثيرين من خوض الانتخابات ؛ ذلك الطالب السمج المكروه من الطلاب الذي ينظر لزملائه باستعلاء لأن والده

ضابـط شـرطة، فأجريـت الانتخابـات فتجمـع الطـلاب وأدلـى الجميـع بأصواتهـم لأحمـس نكايـة فـي هـذا الطالـب.

لكن أمـن الجامعـة كان لـه رأي أخـر، فقـد اسـتبدلت النتيجـة وأعلـن فـوز الطالـب أسـامه فتجمهـر الطـلاب وقـدم أحمـس شـكوى لعميـد الجامعـة الـذي كان مـن قيـادات الحـزب الوطنـي يعلـن فيهـا أن الانتخابـات مـزورة ، فاقتـاد أمـن الجامعـة أحمـس إلـى قسـم الجيـزة بمحضـر يتهمـه فيـه بالتعـدي علـى الطالـب أسـامه عبـد العظيـم رئيـس اتحـاد الطلبـة وحيـازة مطـواة قـرن غـزال.

٣

دخـل أحمـس قسـم الجيـزة فـي ليلـة مظلمـة بـاردة ونجـوم السـماء مختفيـة غائـرة فاقتـادوه إلـى غرفـة المباحـث مربوطـة يديـه بالكلبشـات خلـف ظهـره ومغمـى بقماشـه سـوداء، وعلقـوه فـي حديـده بالسـقف بحيث يلمـس الأرض بأطـراف أصابعه، وانهالـوا عليـه بالكربـاج والشـتائم القبيحـة، وجـاء ضابـط برتبـة رائـد أمرهـم بالتوقـف عـن ضربـه وقـال لـه:

إيه يا روح أمك أنت صدقت نفسك ولا إيه.

أنا معملتش حاجه غلط ومقولتش غير ان الانتخابات اتزورت ضدي.

ده مـش اسـمه تزويـر هـو أنـت كنـت عايـز تفـوز علـى ابـن الباشـا، وضربـه علـى قفـاه وأمـر المخبريـن أن يقتـادوه إلـى غرفـة مغلقـة مليئـة بالميـاه.

وجـد أحمـس نفسـه ملقيًـا علـى الأرض غارقًـا فـي الميـاه والكلبشـات فـي يـده خلـف ظهـره، والقماشـة تغطـي عينيـه، فأجهـش فـي البـكاء والصـراخ والعويـل، فسـمع أمامـه أحـد الضبـاط يقهقـه ويقـول لـه:

لو عايز تخرج من هنا عليك أن تستسمح ابن الباشا ربما يعفو عنك.

ولمـا رفـض أحمـس انهـال عليـه الصـولات وأمنـاء الشـرطة بالضـرب مـع وصلـة مـن الشـتائم وأمضـوه علـى محضـر ثـم اقتـادوه إلـى النيابـة، ولـم يكـن قـد عـرف حتى التهمـة الموجهـة إليـه.

دخل أمام وكيل النيابة بدون محامي فحكى له بانفعال ما حدث لكن النيابة أمرت بحبسه خمسة عشر يومًا على ذمة التحقيق، فاقتادوه إلى سجن الاستئناف بباب الخلق.

وضعوه في كلبش مع شاب يدعى برهامي متخرج من كلية اقتصاد وعلوم سياسية منذ عشر سنوات، ويعمل كبائع متجول لشرائط الكاسيت بعدما عانى مثل باقي شباب مصر من البطالة.

فقد بدأ عمله كصبي في مقهى يمتلكه أحد الفلسطينيين المقيمين بالقاهرة ولما سمعه ذات يوم يسب مصر مدعيًا خيانتها للقضية رد عليه بأننا خضنا أربعة حروب ونزفنا دمائنا وأموالنا بسببكم بينما أنتم بعتم أراضيكم واكتنزتم الثروة من المعونات التي تغدق عليكم، فأصبحتم أصحاب مشاريع ونحن نعيش في فقر مدقع، تشربون المياه المعدنية ونحن نشرب من المجاري، تركبون السيارات الفارهة بينما نقبع في الأتوبيسات مثل علب السردين، فإذا كنتم تعتقدون بأن لكم وطنًا ما الذي يمنعكم من أن تحرروه مثلما حررنا نحن أرضنا ومثل أي شعب عليه أن يحرر أرضه المحتلة ولا ينتظر أن يحررها له الآخرون. أم تنتظرون أن نعلن الحرب حتى أخر جندي مصري؟ كفاية ابتزاز فإذا كان هناك قضية فهي قضيتكم وعليكم أن تحلوها بالطريقة التي ترونها حربًا أو سلمًا، فطرده الفلسطيني دون أن يعطيه أجره اليومي، فعمل كبائع جرائد متجول على الرصيف ولكن شرطة المرافق لم تكن لتتركه في حاله فكانوا يصادرون منه الجرائد عنوة ولا يستردها إلا بدفع رشوة لأمناء الشرطة والمخبرين، وإذا رفض الدفع لا يستردها إطلاقًا.

حتى وجد الحل عندما كان يتجول في شارع العزيز بالله بالزيتون فوجد الشارع مكتظ بالمصلين السلفيين الذين يتجمعون للصلاة في هذا المسجد الذي

يخطب به أئمة شيوخ السلفية حسونه ويعقوب وإسحاق وهيما...الخ.

كان الوقت صلاة العشاء فدخل برهامي ليصلي وكان الشيخ حسونه يلقي خطبة عن طاعة ولي الأمر والالتزام بالسنة النبوية وبعد أن أنهى خطبته قبيل الصلاة طلب من المصلين الاستفسار عن أي سؤال يؤرقهم.

قام عدد من أتباعه بالثناء والدعاء له ومنهم من سأل عن حكم عدم إطلاق اللحية أو استعمال معجون الأسنان بدلًا من السواك، وجاوب عليهم الشيخ حسونه بأنهم عصاه وطلب منهم أن يدعو الله لهم بالهداية.

وعندما جاء الدور على برهامي سأل الشيخ عن رأيه في الديمقراطية وعن سبب انتشار الظلم والواسطة فانتفض أتباع الشيخ يوبخونه لكن الشيخ أشار إليهم بالسكوت، ورد بأن هذه الدعاوي بدعة أهل الكفر من الليبراليين والعلمانيين، فالديمقراطية تعني إرادة الشعب في التشريع وليس الحكم بما أنزل الله مما يعني أن أي قانون مخالف للشريعة يمكن أن يصدر بالأغلبية وبذلك تكون الشريعة قابلة للتصويت والرفض، علاوة على أننا كمسلمون مطالبون بطاعة ولي الأمر حتى وإن ضرب ظهرنا وهتك عرضنا، وأن انتشار الظلم والواسطة ما هو إلا لعدم التزامنا بديننا، وأن الغلاء سيزول عند ارتداء النساء النقاب.

وعندما بدأ برهامي بالقول أن ربنا أمرنا بالتفكير بالعقل صده الشيخ حسونه قائلًا: بأن هذا العقل عليك أن تضعه في الحذاء فالله لم نعرفه إلا بالشريعة، فالعقل يمكن أن يصل بنا للكفر لان الله خلقنا ووضع لنا أحكامًا لا نحيد عنها فهو أعلم بنا مثل صانع الثلاجة الذي يضع لها كتالوجًا، وعندما حاول برهامي الرد منعه أتباع الشيخ واستعاذوا بالله من أن يرد على أعلم أهل الأرض!، فلم يجد برهامي أي جدوى من الحوار لكنه وجد حلًا لمشكلته.

فعند خروجه من المسجد وجد العشرات من بائعي شرائط خطب هؤلاء

الشيوخ وأكثرهم لخطب الشيخ حسونه ومرت شرطة المرافق ولم تلتفت إليهم، فتحدث معهم وعلم أن شرطة المرافق يتركون بائعي هذه الشرائط في أي مكان، فطلب منهم معرفة الأماكن التي يشترون منها.

في البداية رفضوا، وبعدما اقسم لهم أنه سيبيع هذه الشرائط في أماكن أخرى بعيدًا عنهم دله أحدهم على عناوين شركات مدعومة تبيع هذه الشرائط بالجملة منها شركتي النور والرسالة، فبدأ بشراء هذه الشرائط بجنيه واحد للشريط وبيعه بخمسة جنيهات أمام كوبري القبة فيربح يوميًا مبلغ يقيه ذل الحاجة، علاوة على استغلاله لجهل من يسمعونها باعتبار بعض الأشرطة ممنوعة ؛ مثل الشريط المشهور الذي يعلن فيه أحد الأشخاص أنه كان قسيسًا وأسلم ويسب ويلعن في المسيحيين ويتهمهم باتهامات باطلة وشرائط الشيخ كشك التي يستهزئ فيها بالفنانين أم كلثوم وعبد الحليم ...الخ فيبيع هذه الشرائط بعشرة جنيهات للشريط بعدما يوهم المشتري أنها ممنوعة، ومع ذلك لم يكن يؤمن بأي كلمة مما يقولها هؤلاء، واستمر الحال هكذا لأكثر من ثلاث سنوات.

حتى كان هذا اليوم الأغبر عندما أتى أحد أمناء الشرطة يجمع كعادته إتاوة من البائعين وكانت هناك سيدة مسنة تبيع الجرجير والخضرة بجانب برهامي رفضت الدفع فضربها الأمين بالكف على وجهها ورمى بالجرجير على الأرض، فدافع برهامي عن هذه السيدة ونشبت مشادة كلامية بينه وبين أمين الشرطة فرجع الأمين ومعه عربة البوكس وقبض عليه وحرر له محضر يتهمه بمقاومة السلطات، فكان مصيره خمسة عشر يومًا على ذمة التحقيق.

٤

كان القدر هو من جعل أحمس وبرهامي في نفس القسم فاقتادوهم في عربة مصفحة وتوقفت العربة أمام بوابة ضخمة تعلوها لافتة « السجن إصلاح وتهذيب » فوجدا أنفسهم في قاعة ازدحمت بالمساجين الجدد الذين تولى العساكر تفتيشهم تفتيشًا دقيقًا، وكان يشرف على التفتيش أحد الصولات الذي أعلن بداية أوامره: أنه ممنوع استعمال أي شيء معدني أو آلات حادة أو نقود فالعملة في السجن هي السجائر.

جلسا أحمس وبرهامي مع المساجين الجدد القرفصاء إلى جوار الحائط واضعين ما سمح لهم بدخوله من طعام بين سيقانهم وهم يمسحون عرقهم وينشون الذباب.

بعدها ظهر أحد الضباط وجلس على كرسي أعطاه أحد العساكر دفترًا مدون فيه أسماء المساجين المستجدين وبدأ بقراءة الأسماء بصوت مخيف وكل من يسمع اسمه عليه أن يقف ويستلمه اثنان من الصولات يضرباه على قفاه ويركلاه، ثم يأمرونه بخلع ملابسه ليستبدلها بملابس سجن الاستئناف البيضاء.

بعدها دخلوا غرفة التصوير وهم ممسكين كل بنمرته، وبعدما انتهوا من التصوير جاء حلاق السجن ليقوم بمهمته وهي ضرب ماكينة الحلاقة في جزء من الرأس لتشويه الشعر ومن يعطيه علبة سجائر يحلق له على الزيرو، وكان

أحمس قد دفع لأحد أمناء الشرطة ما تبقى معه من مبلغ وهم في طريقهم للسجن لشراء سجائر بأضعاف ثمنها فدفع للحلاق ليحلق له ولصديقه برهامي، وبعد الحلاقة جاء اثنان من الصولات الجدد وبعدما افرغوا ما في جوفهم من شتائم قبيحة بدؤوا بصفع المساجين المستجدين وهم يقتادوهم إلى الزنزانة.

أقفل الصول الباب الحديدي ودخلا أحمس وبرهامي مع المساجين الجدد ووقف نباطشي العنبر وهو من قدامى المساجين ليعلن أوامره:

«أن لكل مسجون مستجد بلاطة ونصف عرض وسبع بلاطات طول ومن يرغب في بلاطات أكثر عليه أن يدفع خرطوشة سجائر»، وأشار للمستجدين بمكان نومهم، فكان مكان أحمس وبرهامي عند المرحاض، وهو ليس بالحمام العادي فهو عبارة عن مرحاض بلدي مكشوف.

بعدها بدأ استقبالهم من خلال المساجين القدامى بما يسمى «الاستقبال» وهي نوع من ضرب المسجون المستجد لمعرفة التعامل معه وقدره عندهم.

قالوا لهم افتحوا التليفزيون ولم يكن هناك تليفزيون، فبدؤوا بصفعهم لمعرفة رد فعلهم.

كان أحمس حاصلًا على الحزام الأسود في لعبة الكاراتيه التي كان يتدرب عليها أمام وابور المياه في الحبالصة فاستدعى في التعامل معهم الكاتات التي تعلمها، لكنهم بدؤوا بضربهم بالأمواس الحادة فلم تسعفه فنون الكاراتيه، فوجد برهامي أمامه مياه ساخنة يستعملها المساجين في تحضير الشاي، فأدلكوا المياه على المساجين القدامى فتوقف الجميع عن ضربهم ورحبوا بهم واحترموهم.

ومثلما لكل شيء في الحياة ثمن لم يكن هذا الاحترام مجانًا، فقد سمع الصول الصراخ من الخارج فدخل وحكم على أحمس وبرهامي بدخول ما يسمى

بالتأديب أو التجربة لمدة أسبوع وهي حبس إنفرادي.

كان التأديب عبارة عن زنزانة لا تتسع لقزم أن يجلس بها منفردًا ويخيم عليها الظلام الدامس فلم يكن بها ثمة نور غير شعاع خافت بجوار الأقفال الحديدية، ودخلا بزنزانتين متجاورتين لا يسمعون إلا صوت المساجين بالليل وهم يهتفون ليضيعوا جزءًا من وقتهم في ترديد مواويلهم الخاصة التي تمثل معاناتهم الإنسانية وهي عبارة عن أرقام، كل رقم له جملة تتناسب مع مظالمهم، فيبدأ أحد المساجين بقراءة العدد فيرد الباقين:

١ وحد الواحد

٢ بالصلاة على الحسن والحسين

٣ ثلاثة بالله العظيم ثلاثة ما هدخل باب السجن تاني

٤ قعدتنا في الملكية حلوة مربعة

٥ عدد صوابع إيدي

٦ ست الملاح اللي تصون عرض بيتها

٧ سبع الرجال من بعد العز نام على الأرض

٨ تمن الرجوله أنك تكون مسجون

٩ تسع محاضر كلهم تلفيق

١٠ العشرة ما تهونش إلا على أولاد الحرام

١١ يا كده

١٢ يا كده وكده

١٣ مافيش ظلم أكثر من كده

١٤ يا قمره

١٥ يا نصف الشهر...إلخ

رجعا بعد أسبوع من التأديب للعنبر وكانا يتناولان وجبتهم اليومية عبارة عن طبق بلاستيك به حفنة من الفول مليئة بالسوس دون زيت أو ملح وعلبة حلاوة طحينية متحجرة، وثلاث أرغفة تأبى الكلاب ان تراها.

واندمجا مع باقي المساجين الجنائيين ينطقون لغتهم فينادون بعضهم بكلمة «زميلي» وكانوا في عنبر الحرامية يستمعون لشكواهم وأمثالهم التي تصدر عن المقهورين وتكرس لمزيد من الظلم مثل: «إذا قابلت أعمى فخذ عشاه فأنت مش أحن من اللي عماه».

أكملا الخمسة عشر يومًا على ذمة التحقيق واستطاع برهامي أن يتصل بأحد معارفه المحامين بعدما دفع أحمس أخر سجائر معه للصول، فدافع المحامي عنهم سويًا فخرجا براءة على أن يخرجا من قسم الجيزة، وتوسط المحامي لدى ضباط الشرطة حتى خرجا إلى الشارع... وبينما هم خارجين من السجن سأل أحمس صديقه برهامي:

ما جدوى حياتنا الإنسانية طالما أصبحنا نعامل كالحيوانات في بلدنا؟

هذا ما يتوقف علينا إما أن نعي وجودنا كبشر وبالتالي لا نسمح لأحد بسلب حقوقنا الطبيعية، وإما أن نصمت على كل ما يمارس علينا وعلى غيرنا من انتهاكات ونكون كالدمى المتحركة.

لماذا لا نهتم بمصالحنا الخاصة فنجمع المال بالحلال وننتهز الفرص ونعيش في سعادة وراحة بال، ونتجاهل مشاكل وحقوق الآخرين فلا نرتكب شيء مخالف للقانون وفي نفس الوقت نصمت على كل ما يجلب لنا مشاكل ؟

لن تستطيع طالما أنك اكتسبت معرفة، فكلما ذادت معرفة الإنسان زاد قلقه وأصبح من النخبة، ولكونك من النخبة تقع عليك مسؤولية المساهمة في قيادة

المجتمع للأفضل، فإما أن تتخلى عن دورك وبالتالي يصبح وجودك كإنسان لا معنى له، وإما أن تمارس حقك الطبيعي في أن تكون حرًا وبالتالي عليك أن تخلق وجودك الخاص.

ماذا تقصد بخلق وجودي الخاص؟

أقصد أن تكون لك إرادة وتعلم الغاية من وجودك كإنسان، فالسفينة تكون آمنة على الشاطئ لكن ليست من أجل ذلك صنعت.

تقصد ألا نعيش كباقي القطيع؟

نعم فالسمك الميت هو الذي يسبح مع التيار، وأمتنا المصرية امة حرة خالدة خلود الدهر، ومصر وجدت قبل أن يكتب التاريخ، فأجدادنا هم من صنعوا تاريخ البشرية ويمكننا أن نقود العالم إذا وعينا مسئوليتنا التاريخية.

ولم تكن هذه التجربة المريرة التي خاضاها لتجعلهما يعيشان كباقي القطيع فقد أحسا بالظلم مما أشعل فيهم نار الرغبة في العدالة، وعانا من الذل والهوان في بلدهم مما أشعل فيهم رغبة في الحرية والكرامة.

فتقابلا في اليوم التالي مباشرة في مركز هشام مبارك حيث تجتمع الحركة المصرية من أجل التغيير التي تضم نخبة سياسية مختلفة في توجهاتها مؤمنة بالنضال السلمي، يرفضون توريث الحكم تحت شعار «كفاية».

٥

نظمت حركة كفاية مظاهرة أمام مجمع التحرير للتنديد بالتعديلات الدستورية التي اقترحها الرئيس والتي رأتها الحركة دعائم لتوريث الحكم، ورفع المتظاهرون يافطات «لا للتوريث، لا للتمديد، نعم لانتخاب رئيس الجمهورية لأكثر من مرشح»

وبدأت حناجر أحمس وبرهامي تعلو مع المتظاهرين بالهتافات:

علُي وعلُي وعلُي الصوت — اللي هيهتف مش هيموت

قوم يا مصري وعلُي الصوت — اللي بيهتف مش بيموت

علُي في سجن السور وعلُي — بكره الثورة تقوم ما تخلي

هو مبارك عايز إيه؟ — عايز الشعب يبوس رجليه؟

لا يا مبارك مش هنبوس — بكره الثورة عليك هتدوس

لا يا مبارك مش هنبوس — بكره عليك بالجزمة ندوس

يا جمال قول لأبوك — شعب مصر بيكرهوك

يا جمال قول لأبوك — طوب الأرض بيكرهوك

أول مطلب يا شباب — حق تعدد الأحزاب

ثاني مطلب يا جماهير — حق النشر والتعبير

ثالث مطلب يا أحرار — هو سقوط كل الأسوار

يا أهالينا يا أهالينا — أدي مطالبنا وأدي أمانينا

الإصلاح بقي شيء مطلوب قبل الشعب ما يأكل طوب

آه يا حكومة هز الوسط كيلو اللحمة بقى بالقسط

يا سوزان قولي للبيه كيلو العدس بعشره جنيه

يا سوزان قولي لجمال أنت وأبوك عايشين في خيال

هما بياكلوا حمام وفراخ وإحنا الجوع دوخنا وداخ

هو بيبني في استراحات وإحنا نعاني آهات وآهات

أمن الدولة يا أمن الدولة فين الأمن وفين الدولة

قولوا للكلب العادلي وسيده بكره الثورة هتقطع إيده

فبدأت قوات الأمن المركزي بضرب المتظاهرين، وبينما كان أحمس يحاول تجنب عصا الأمن الكهربائية إذ يرى مفاجأة أذهلته وكأن الزمن قد توقف للحظة.

يا الهي! ما هذا الذي يراه أمامه هل ما يراه حقيقة أم تشوش بصري أصابه نتيجة الغاز المسيل للدموع . إنه صديقه مينا الطالب بالجامعة الأمريكية الذي لم يشترك في المظاهرات من قبل خارجًا من شارع يوسف الجندي رأى الفتيات تسحل فانتفض وانقض فجأة وسط المتظاهرين يتلقى هراوة الأمن المركزي التي كانت ستصيب فتاة طفولته أمال.

عشر أعوام تلاشت في غمضة عين...عشر أعوام مرت كأن لم تكن... فالحب هو الشيء الوحيد الذي يبقى إذ لا يستطيع الزمن أن يضعفه، هكذا عادت الذكرى تداعبه، فاللي يجمعهم الحب مفيش زمن يفرقهم.

هاهو القدر السعيد يجمعه بحبيبة الطفولة أمال... تلك الفتاة ذات الوجنتين كالورد والعينان كالزمرد والتي لم يحب مثلها في الكون، أحبها بكل جوارحه، أحبها حتى فني في حبها، أحبها حب أفلاطوني بريء فقد كانت في فصله

الدراسي طوال المرحلة الإعدادية يكتب إليها في قصاصة ورق صغيرة « بحبك بجنون » و « خدودك مثل التفاحة »، وكان يترشح ليكون رئيسًا للفصل طمعًا في ابتسامة منها، وكان لا يحلم أن يلتحق بالثانوية العامة إلا لكي يفوز برضاها.

فكان يقف عند جزع شجرة الجميز بالقرب من مقام الشيخ محمِد قبلي البلد مساء كل جمعة لا لشيء إلا ليرى ابتسامتها من بعيد وهي آتية مع الأطفال والنساء من قرية عنك الملاصقة للحبالصة، وفي الحقيقة هم قرية واحدة ولا يفصلهم عن بعضهم شيئًا سوى الاسم ... فكان يسمعها وهي تغني مع الأطفال:

إن قالك هاتيلي الزير هاتيله البحر الكبير

اتدحرج وأجري يا رمان وتعالى على حجري يا رمان

ده أنا حجري حنين يا رمان يخدك ويميلك يا رومان

يا منفلوطي يا رمان

دقوا المزاهر يلا يأهل البيت تعالوا

جمع ووفق والله وصدقوا اللي قالوا

عين الحسود فيها عود يا حلاوة عريس قمر وعروسته نقاوه

وإحنا الليلة دى كدنا الأعادي

التقت عينيه بعيناها وهي تسحل من قوات الأمن بينما ابتسامتها لم تفارق شفتاها، فألقى بنفسه بين قوات الأمن ليتلقى الصفعات والسحل بدلًا منها، وبعدما انتهت المظاهرة خرجا سويًا.

كان المساء قد بدأ يلف الكون بردائه فسار معها على كورنيش النيل وهو يشعر بسعادة لم يحظى بها من قبل رغم ألآم الضرب والصفعات التي تلقاها من قوات الأمن المركزي.

تأملها بصمت فترة طويلة من الوقت ؛ ثم نظر إليها نظرة مليئة بالأشواق والهمسات القلبية رغم اغروقاق عينيه من الغاز المسيل للدموع... نظرة تختصر عشر سنوات من الفراق بسبب الخلاف الذي نشب بين عائلته (قبيلته) وعائلتها والذي أودى بهروب أسرتها من القرية وقال لها:

ما الذي اقترفناه حتى نحاسب على ما فعله غيرنا ؟ بل ما الذي يجعل إنسان يكره أخر لمجرد أنه ولد من عائلة معينة، أو صديقًا يقاطع صديقه بسبب خلاف بين عائلتيهما، بل من الذي اخترع فكرة العائلات والثأر أصلاً، فهي فكرة شريرة مستورده إلينا من العادات العربية البدوية مثلها مثل التعصب الديني الذي يشجعه ويروجه النظام ليلهي الشعب عن حقوقه وإدارة شئون حياته ويصب الناس غضبهم على بعضهم عوضًا عن مطالبتهم بحقوقهم المهدرة، فالمصريون أمة واحدة ذات عرق وأصل واحد ممتد منذ آلاف السنين من قبل مينا ليوم الدين، لأننا أول وأعظم وأرقى أمة في التاريخ، فأجدادنا هم من حولوا البشرية للإنسانية عندما بزغ الضمير الإنساني في وادي النيل... فما ذنب إنسان أنه ولد من عائلة معينة أو ولد على دين معين ؟!

ابتسمت له واغرورقت عيناها بدموع الحب كدمعة ايزيس التي انفجرت على حجر شعبان عندما وجدت أخر قطعة من جسد أوزير ونظرت إليه بهيام العشاق وقالت:

يقولون أن المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين، ده كله مقدر ومكتوب مثل عائلتنا وعائلتكم وباقي العائلات المزيفة كما قال الرجل الطيب إمام المسجد زمان.

كان شيخ صاحب نكته عكس شيوخ هذه الأيام اللي شكلهم وضحكتهم السمجة وتجهمهم ونفاقهم ملوش حدود، لكن في الحقيقة كل العائلات وفكرة

القبلية نفسها مزيفة، فقد تبرأت من القبلية وكل ما يفرق بين مصري وآخر بسبب أصله العائلي أو دينه أو فكره، ولكن ما الذي جعلك تهتمين بالشأن العام وتخاطرين بالاشتراك في المظاهرات؟

عندما هرب أبي من جحيم القبلية إلى العراق لم يحصل من سنوات شقائه في الغربة إلا على بضع أوراق صفراء يعلم الله متى ستصرف، فسافر للسعودية وعمل عدة سنوات يستغله الكفيل ويحصل منه على مبلغ شهري نظير عمله للغير وهذه عبودية مقننة، ولما رجع إلى مصر كلما يحاول أن ينشىء مشروعًا يصطدم بالروتين البيروقراطي الذي كرهه في أي عمل حر، حتى فتح مقهى بسيط وما زلنا نعاني من رذالة موظفي البلدية وبلطجة أمناء الشرطة وتعقيدات الأوراق والقوانين المتضاربة، أليس كل ذلك بسبب انعدام الديمقراطية وحقوق الإنسان وحقه في أن يعيش بحرية وسعادة وكرامة؟

ومن ناحية أخرى فإن قريتنا الحبالصة وعنك كما تعلم تفتقر إلى مقومات الحياة الإنسانية فليس بها مركز شباب أو حتى صرف صحي فبيوت أهالينا تنهار نتيجة مياه الصرف ويوميًا يجلبون عربات النزح ويرون القرف بعيونهم ... منذ سنوات عديدة ونحن نحلم أن يكون لدينا صرف صحي مثل باقي البني آدميين، ولا يمكن أن نحصل على حقوقنا دون نضال، إذا لم نتحرك مطالبين بحقوقنا لن نحصل على صرف صحي أو غيره.

لم يجد ما يرد به فظلا فترة صمت دون تبادل أي كلام، غرقا بالعناق وكأنهم ينهالون هيامًا من بعضهم البعض، أغمضت عينيها ثم فتحتهما، فرأت وجهه ذاب بعشقها .

حضنها وفتح لها زراعيه، فما كان منها إلا ان استجابت لمطلبه دون اعتراض. استشعرت بدفء جسده، فأسندت رأسها على كتفه، ثم أحاط خصرها في

ارتباك حذر... انتفضت بين ذراعيه في أول الأمر، إلا أنها التصقت به كالتصاق الزهور بفصل الربيع.

نظرت إليه بعشق، ولحظتها تمنيا أن يكونا كعصفورين، يحلقان في الفضاء، يهبطان في أي منطقة من العالم، يشربان منها، ويرقصان في كل الاتجاهات، ويتبادلان أناشيد العشق والغرام.

وكانت مذبحة نجع حمادي فسافرا سويًا لموقع الحادث الطائفي ثم نظموا مع رفقائهم من قوى وحركات سياسية عديدة مظاهرة صاخبة أمام دار القضاء العالي للتنديد بالأحداث الطائفية وبدأت حناجرهم تعلو بالهتافات:

أوعى يا مصري تخون أفكارك — قتل القبطي عاري وعارك

مسلم قبطي الأيد في الأيد — لجل ما نصنع فجر جديد

ياللي حاكمنا بالحديد — قتلوا أولادنا ليلة العيد

ياللي حاكمنا بالمباحث — كل الشعب بظلمك حاسس

يا مبارك يا طيار — قلب القبطي مولع نار

حط محمد جنب حنا — ترجع مصر تاني جنة

٦

ظلا أحمس وأمال يجتمعان يوميًا على مقهى البورصة بوسط البلد مع باقي رفقائهم للتحضير للفعاليات والمظاهرات، وقد كان في ذلك الوقت في أشد حالات الحب فارتمى في لجة الهوى ورضي عن نفسه وعن هوى قلبه، وأصبح يراها يوميًا وكأنها ماء النيل الذي لا يستطيع العيش بدونه، وقد عادت إليه كما لو كانت نبتة صبار صحراوية عادت إلى الحياة من زخات مطر خفيفة.

وبدأت المظاهرات التي يقودها رفقائهم عبد الجواد وعلاء تطوف شوارع الإسكندرية يوميًا تنديدًا بمقتل الشاب خالد سعيد على يد اثنين من مخبري الشرطة، في حين بدأت الحركات السياسية في التحضير لمظاهرات بالقاهرة وكان أكثرها حشدًا أمام نقابتي الصحفيين والمحامين التي اشتركت فيها معظم الحركات والقوى السياسية النشطة. وبدأت الهتافات تعلو:

جدو أحمس اصحى وشوف — الخيانة على المكشوف

خالد سعيد مات مقتول — والعادلي هو المسؤول

عمر السجن ما غير فكره — عمر القهر ما أخر بكره

خالد خالد يا بطل — دمك بيحرر وطن

وبدأت الاجتماعات تتوالى... ففي مركز بن خلدون بالمقطم اجتمعت مؤسسات المجتمع المدني وجمعيات ومراكز حقوق الإنسان وأصدروا تقرير مراقبة انتخابات

مجلس الشعب وما شابها من تزوير فاضح ورفعوا الدعاوي القضائية لإسقاط المجلس، مما أدى لتشكيل برلمان موازي ممن زورت ضدهم الانتخابات بعدما انسحب الوفد ثم الإخوان المسلمين من الجولة الثانية للانتخابات، بينما كان رد الرئيس: «خلّيهم يتسلّوا».

في حين اجتمعت الجمعية الوطنية للتغيير التي تضم كل القوى والحركات السياسية المعارضة بحزب الجبهة لصياغة المطالب الستة للتغيير التي أعلنها البرادعي وتشكيل لجنة تطوف المحافظات المختلفة للتوقيع عليها من الشعب.

وفي مقر حزب الغد بشارع طلعت حرب أمام جروبي اجتمع شباب حزب الغد والجبهة والمصري الليبرالي ومصر الأم والكرامة، وحركات الاشتراكيين الثوريين و٦ ابريل وكفايه ومركز المليون للتحضير لمظاهرات لوأد مشروع التوريث.

بينما قامت حركة ٦ ابريل بإحياء الذكرى الثالثة لتشكيل الحركة بمظاهرات أمام نقابة الصحفيين ودار القضاء العالي وماسبيرو وانضمت إليهم جميع القوى السياسية المعارضة وطالبوا بإعلان العصيان المدني، بينما قمعت الشرطة المتظاهرين بالجامعات وأقامت حفلات لمشاهير المطربين لجذب الطلاب وإلهائهم عن التظاهرات.

في حين عقد الحزب المصري الليبرالي (تحت التأسيس) بشارع الترعة البولاقية اجتماعًا ضم الأحزاب تحت التأسيس التي رفضتها لجنة شؤون الأحزاب والاتحاد المصري للشباب الليبرالي وأصدروا بيانًا يدين قمع الشرطة وتزوير الانتخابات ومشروع التوريث وطالبوا بإطلاق الحريات العامة وإلغاء كافة القوانين المقيدة للحريات.

وفي الاتجاه المقابل عقد الحزب الوطني اجتماعًا موسعًا تحت عنوان «من أجلك أنت» لإقناع الناس بتوريث الحكم بعد عدة حملات قام بها أنصاره

بالمحافظات المختلفة ؛ في حين أعلنت قيادات السلفيين حسونه ويعقوب وهيما وإسحاق...الخ موقفها بإطاعة ولي الأمر وتكفير الخروج على الحاكم ؛ بينما قام أنصارهم بالتظاهر أمام الكاتدرائية مطالبين برجوع الأخت كاميليا!.

وكان تفجير كنيسة القديسين في ليلة رأس السنة أخر الأحداث التي فجرت الموقف، فقد نظمت حركات أقباط من أجل مصر ومصريون ضد التمييز والحزب المصري الليبرالي مع باقي القوى السياسية المدنية، مظاهرة حاشدة أمام ضريح سعد زغلول مطالبين بسقوط مبارك وبدأت الحناجر تعلو بالهتافات:

جبهة وطنية واحدة	ضد السلطة اللي بتدبحنا
مرقص صايم في رمضان	لجل ما يفطر مع شعبان
المواطنة هي الحل	ضد الظلم وضد الجهل
أمن الدولة ليه تفرقنا	لجل ما تنهب وتغرقنا
لما ضربوا ف دير ياسين	عمره ما فرق بين الدين
يا زكريا يا صمويل	هما زرعوا بينا فتيل
أذكر ربك مجد سيدك	هو مصيري نفس مصيرك
جورج وعبده قالوا كفاية	إحنا وهما كنا ضحايا

في تلك الأجواء الثورية المشحونة بالغضب كانت ثورة تونس قد بدأت فنظمت حركة كفاية مظاهرة بوسط البلد تضامنًا مع ثوار تونس وبدأ الآمل يعلو مع الهتافات:

قول يا محمد قول يا بولس	بكره مصر تحصل تونس
بكره نقول كان قهر وعدى	لما مبارك يوصل جده
يا مبارك يا مبارك	الطيارة في انتظارك

يا مبارك يا مبارك السعودية في انتظارك

أول طلعه جوية لازم تكون على السعودية

بينما كان رد وزير الخارجية أن «مصر ليست تونس».

وقاد كل من عوض والبلم اجتماعات تنسيقية ائتلاف شباب الدلتا والتي تضم تسع محافظات واتفقوا علي طريقة التحرك ودعوة البرلمان الموازي للنزول كل في محافظته... وبدأ أول تحرك يوم ٢١ يناير من بلطيم في التاسعة صباحًا بوقفة صامتة لمدة نصف ساعة وتحرك النشطاء بعدها في الشوارع حاملين أعلام مصر وتونس وكسروا الحاجز الأمني في الثانية ظهرًا هاتفين:

بكره هيطلع فجر جديد مدد يا سيدي بوزيد

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر

وفي أسيوط كان مقر حزب الأحرار بشارع النميس غرفة عمليات للتحضير لمظاهرات وفعاليات أحزاب المصري الليبرالي والأحرار والوفد والغد والجبهة والتجمع والناصري والذي أصبح مقر لثوار الصعيد.

واجتمع الرفاق في مقهى الندوة الثقافية بباب اللوق، فاستعرض مينا خلال الاجتماع تقرير مركز بن خلدون لمراقبة الانتخابات ؛ بينما قدم أحمس المطالب الستة للتغيير التي أعلنتها الجمعية الوطنية للتغيير لتوقيع الشعب عليها ؛ وقدمت أمال خطة تحرك حركة ٦ ابريل؛ وقدم علاء بيان من الحركات الشبابية يدين قمع الشرطة وحالة الطوارئ الدائمة؛ بينما أتى برهامي ومعه خطة للتحرك لوأد مشروع التوريث وكيفية استمرار الحراك ردًا على جريمة مقتل الشاب خالد سعيد ؛ وأخبرهم عبد الجواد عن جروب على الفيس بوك يضم آلاف الشباب يسمى «كلنا خالد سعيد».

فاقترحوا جميعًا الخروج في مظاهرات للتنكيد على الشرطة في عيدها يوم

الثلاثاء ٢٥ يناير، على أن تبدأ الثانية ظهرًا وتنتهي في الخامسة مساءً أمام مبنى وزارة الداخلية، وتتحرك التجمعات في شارع جامعة الدول العربية، ودوران شبرا، وجامعة القاهرة.

وكان الموجودين ممثلين لحركات وأحزاب سياسية منها: كلنا خالد سعيد، وحركة شباب ٦ ابريل، وحركة شباب من أجل العدالة والحرية، والحركة المصرية من أجل التغيير (كفاية)، والجمعية الوطنية للتغيير، والتراس الزمالك والأهلي، والحزب المصري الليبرالي، بينما رفض الإخوان المسلمين المشاركة بحجة عدم توجيه الدعوة لهم.

وعندما شقشق الصباح رجع أحمس إلى قريته الحبالصة وطاف بالقرى المجاورة لعله يرى أثر تلك النيران المتقدة بالغضب إلا أنه لم يجد أي تغيير ينبئ بشيء، فقد شعر بأن السماء غاضبة، ورائحة النيل عابقة، وطيور الليل تصرخ مما تراه من ظلم وجهل سائد بين الناس.

مجرد أعداد من البشر تحولوا لمسوخ بشرية تتجمع في هيئة قبائل تتصارع وتثأر من بعضها البعض بعدما فقدوا هويتهم المصرية الحضارية، فهذا يفتخر أنه من الأشراف وذاك من بني هاشم والبعض يرى أن أصله من شبه الجزيرة العربية والأخر من المغرب أو أن أجداده أتراك، وكأن حضارة وادي النيل العظيم تلاشت أو استبدلت في غفلة من الزمن بهوية عربية جافة كجفاف صحراءها.

يغمسون اللقمة في ذل الخنوع ويلوذون بالأحكام العرفية ويحكمون فيما بينهم المجرمين القدامى المتعاونين مع الشرطة بعدما فقدوا ثقتهم بالقانون، ينتصرون للجاني إذا كان قويًا ويلومون الضحية، واقتصر الشرف لديهم عند المرأة التي لا يورثها منهم إلا القليل، وليس في الكذب والنفاق والتزلف إلى أصحاب السلطة والجاه، وانتشرت بينهم الطائفية بعدما تشبعوا بأقوال مشايخهم.

أصبحوا مجرد قطيع من البشر سافر أغلبهم للخليج بحثًا عن حياة كريمة بعدما فشل النظام في توفير مناخ جاذب للعمل فجمع بعضهم أموالًا لم تستثمر في خلق فرص عمل تقيهم شر الذل والهوان عند الكفيل، ولكنهم استثمروها إما في شراء أسلحه للثأر من بعضهم، أو للتباهي بإطلاق الرصاص في الأفراح، أو المضاربة في شراء الأراضي، أو بناء مساكن خراسانية متراصة على الأراضي الزراعية.

كادت أحلام أحمس في الحرية والكرامة أن تتلاشى لولا أنه يعلم أن الساعة الأكثر ظلمة هي الساعة التي تسبق شروق الشمس، وتذكر أن هؤلاء هم أحفاد أول وأعظم وأرقى حضارة في تاريخ البشر وأن الضمير الإنساني بزغ في هذه الأرض المقدسة ارض كيميت الطاهرة، وأن ما نراه ما هو إلا قشرة بدوية يمكن انتزاعها بالوعي لاستخراج المعدن المصري الأصيل، مثلما حدث من قبل عندما شارك أجداد أهل الحبالصة وعنك في مقاومة الاحتلال الانجليزي بتحرير التوكيلات لسعد زغلول، ثم بوقف القطارات ورمي من فيها من جيش الاحتلال في الترعة الإبراهيمية إبان ثورة ١٩ المجيدة.

٧

كانت الغيوم تلبد السماء فانهطلت الأمطار مدرارًا كالسيول متوارية خلف حناجر المتظاهرين التي تملأ الميدان ضجيجًا، فلا صوت اليوم يعلو فوق صوت الثوار.

وصل أحمس الثانية ظهرًا لميدان عبد المنعم رياض بالتحرير مذهولًا مسلوب اللب وكأنه في حلم لا يريد أن يغفو عنه لحظة .. أي نشوة غامرة يستشعرها المرء في مثل تلك اللحظات التي أضاء فيها المصريين سماء ميدان التحرير بشموع الحرية.

فهاهم أحفاد الفراعنة العظام يصنعون التاريخ مثلما فعل أجدادهم الأقدمين قبل أن يكتب التاريخ: شجعان كالأسود لكنهم يحلمون بالعدالة التي كانت تمثلها الإلهة ماعت في تاريخهم التليد... بريئون براءة الملائكة لكنهم يمتازون عنهم بأنهم أحرار، يتوقون إلى الحرية التي حرموا منها في عصر الانحطاط ويكسرون حاجز ستين عامًا من القهر والخوف، ويثبتون للعالم أن الأمة المصرية أمة خالدة خلود الدهر.

نظر حوله فرأى أتوبيس توقف عن السير بسبب القنابل المسيلة للدموع التي تطلقها الشرطة على المتظاهرين وهم في حالة هرج ومرج فنزل كل من في الأتوبيس يهتفون:

عيش حرية عدالة اجتماعية كرامة إنسانية

نظر حوله ليفتش عن رفاقه المتظاهرين الذين يراهم كالمعتاد في أية مظاهرة والذين لا يزيد عددهم عن خمسين فلم يعثر على أي منهم وسط الزحام ودخان القنابل المسيلة للدموع ومطاردة الشرطة بخراطيم المياه وطلقات الخرطوش التي تزيد المتظاهرين إصرارًا.

وصل إلى ميدان التحرير مع المتظاهرين وهم في حالة كر وفر مع الشرطة هاتفين:

سلمية سلمية

فازدادت القنابل المسيلة للدموع حتى كاد أن يغمى عليه، حتى تفاجأ بأن الباعة الجائلين يفتحون علب البيبسي الكنز ويرشون على وجهه منها لوقف تأثير الغاز المسيل للدموع لكي يقاوم مع رفاقه ممن يضعون كمامات محشوة بالبصل ليستطيعوا الصمود... فعلا هتاف المتظاهرين لأول مرة:

الشعب يريد إسقاط النظام

ازدادت الشرطة شراسة بينما ازداد المتظاهرون إصرارًا وطلب العون من الشعب:

يا أهالينا يا أهالينا	ضموا علينا انضوا لينا
مصر يا حرة سنين وسنين	جبتي الصبر دا كله منين
اسمع مني ومتنساش	الحرية مش ببلاش
واحد أتنين	شعب مصر فين
قولوا للعالم تعالوا شوفوا	أولاد خفرع وأولاد خوفو
قوم يا مصري وعلِّي الصوت	اللي هيهتف مش هيموت

فازداد المتظاهرون عددًا.

كاد الليل يرخي أستاره وبواكير نجوم المساء تسطع في السماء، فامتلأ الميدان بالثوار من كل حدب وصوب فأتوا بالبطاطين ودفع كل منهم مبلغًا ماليًا لشراء الطعام بعدما اتفقوا على أن يبيتوا في الميدان.

كان أحمس وبرهامي وعبد الجواد ومينا وعلاء يوزعون سندوتشات الفول والفلافل على المتظاهرين، بينما كانت أمال توزع البطاطين مع مجموعة أخرى وهم يهتفون:

يابو دبوره ونسر وكاب غاوي ليه قتل الشباب

يا حرية فينك فينك حسني مبارك بينا وبينك

لا توريث لا تعديل مطلبنا هو الرحيل

كلنا جينا يا مصر في حبك نطرد اللي سرقنا وهدك

اعتصام اعتصام حتى يسقط النظام

ثورة ثورة حتى النصر ثورة في كل شوارع مصر

وإذا بصرخة مدوية تنطلق من أمال... فها هي رصاصة أخرى من رصاصات الغدر تنطلق في صدرها أطلقها أحد الذئاب الذين لوثوا زى الشرطة، فقد استشهد هذا اليوم أربعة شباب مصريين أحدهم من المجندين وعشرات المصابين ومئات المعتقلين كل جريمتهم أنهم طالبوا بالحرية.

فزع أحمس صارخًا خائر القوى من أثر الصدمة ورفاقه يحملون جثة حبيبته في عربة الإسعاف وهم يهتفون:

يا شهيد نام وارتاح وإحنا نكمل الكفاح

يا شهيد نام واتهنى واستنانا على باب الجنة

قبلها والدموع تنهمر من عينيه لم يصدق ما يحدث، صرخ بصوت عال، شعر بألم مباغت في صدره كأنما أصابته طعنة... فيا لفجيعة العاشق الذي يحمل هموم الوطن فوق همومه الشخصية.

انقشعت سحب الظلام عن عيون أهالي الحبالصة وعنك، فتلبستهم روح ايزيس، ومحبة اخناتون، وبطولة تحتمس الثالث، ونضال أحمس، فبدئوا يشاركون أبناء وطنهم ويهتفون للثورة أمام المدرسة وعند الطاحونة شرق البلد، ومن أمام مقام الشيخ محمِد قبلي البلد، وبجوار الشيخ مساعد غربًا، ومن عند منزل مطاوع وحجر شعبان ووابور المياه وشارع الرمش وعزبة الكداونه بحري.

مصر يا أم ولادك اهم
دول علشانك شالو الهم دول يفدوكى بالروح والدم
يا قناص يا قناص تضرب عزل بالرصاص
مش هانخاف مش هانطاطى إحنا كرهنا الصوت الواطي
ارفع صوتك زى الناس إحنا كرهنا الظلم خلاص
حكم ٣٠ سنة في العصر هو إهانة لشعب مصر
يا أبو دبوره ونسر وكاب إحنا إخواتك مش إرهاب
مش هانخاف من أبوك يا جمال صوتنا العالي يهد جبال
يا حرية فينك فينك أمن الدولة بينا وبينك
اللي خايف خايف ليه هوة فاضل لينا إيه
بلادي بلادي لك حبي وفؤادي

ولم يكد الفجر يلوح بوجهه الوردي حتى وصلت شهيدة الثورة أمال، فاستقبلها أهالي الحبالصة وعنك استقبال الأبطال وحملوها على الأعناق، وهم ينشدون نشيد الخروج إلى النهار لأجدادهم القدماء:

عندما يصير الزمن إلى خلود

سوف نراك من جديد

لأنك صائر إلى هناك

حيث الكل في واحد

انهض... انهض يا أوزوريس

أنا ولدك حورس

جئت أعيد لك الحياة

لم يزل لك قلبك الحقيقي

قلبك الماضي

وقد خرج الحبالصاوية إلى النهار بعد أن تمزق فجأة ستار الظلام الكثيف الذي حجب عنهم نور المعرفة لأكثر من ستين عامًا.

فاجتمع في المدرسة ممثلون عن كل من: القلايعه والشنايفه والقضاه والحمر والصعايده والمحاجيب وآل عيسى والحميات والمسلمات والعوامر والبرابره والخلايله والعوضلات والله جاب والافنديه والغرابوه والمحافطه والرواشد والشهاينة والنكانيك والغولا وجميع عائلات عنك، وكونوا لجنة شعبية تسافر القاهرة لتمثلهم في ميدان التحرير، واتفقوا على أن تكون العدالة هي النبراس الذي لا يحيدون عنه، والنضال من اجل الحرية هو أسمى أمانيهم، وأن تكون المحبة والمودة بينهم أساس علاقتهم، وأن يفكوا القيود التي كبلتهم بأن يلغوا هذه المسميات القبلية، فالحبالصة أسرة واحدة حيث «الكل في واحد».

٨

كان اليوم الثامن والعشرون من يناير وهو ما أطلق عليه الثوار جمعة الغضب وقد دعوا بمشاركة الإخوان معهم لأول مرة للتظاهر عند الخروج من المساجد بصلاة الجمعة مع تجمع المسيحيين في الكنائس وخروجهم سويًا.

وعندما بدأت خيوط الفجر تلوح في الأفق كان اليوم الرابع للثورة في الحبالصة قد بدأ ولم يختلف عن أي من ميادين الحرية، فكل شيء يتنفس وينطق بالحرية... فالسماء المرصعة بالنجوم تتلألأ على البعد في صمت وحبور، ومياه النيل تنساب على وابور المياه في عزوبة وصفاء وكأنها تنقي نفسها من شوائب الكراهية التي لوثت الحبالصة بلد الحب والبراءة، بينما مياه الترعة الواصلة من الإبراهيمية تتدفق بلون السماء والبحار لون الحرية وعلى حافة شاطئيها عند الطاحونة وكوبري الحبالصة تسمع نقيق الضفادع وشدو الطيور، والعصافير تزقزق متناجية وهي تغني فوق أشجار الصفصاف والنخيل والجميز والتوت، وبجوار المدرسة يملأ أبو قردان الحقول في دوائر راسمًا كلمة الحرية، بينما يحوم الحمام والجمام من على سطوح المنازل ينادون بالسلام بين البشر، ويغني أهالي الحبالصة وعنك لمحمد منير حدوتة مصرية:

لا يهمنى اسمك لا يهمنى عنوانك
لا يهمنى لونك ولا بلادك مكانك
يهمنى الإنسان ولو مالوش عنوان
يا ناس يا ناس يا مكبوتة هي دي الحدوتة
حدوته مصرية حدوته مصرية حدوته مصرية

لتعلن الطبيعة كلها أنها تقف بجانب الثورة، فعندما يطمح شعب إلى الحرية يتآمر كل من في الكون ليجعل حلمه حقيقة.

وهو ما حدث بالفعل فقد استجاب القدر وعزف السلام الوطني مع دقات جرس الكنيسة بعزبة الكداونة، مع أذان الجمعة في المساجد في مشهد مهيب...

وتجمع أهالي الحبالصة وعنك بعد الصلاة عند المدرسة وعند الطاحونة شرق البلد، وبجوار مقام الشيخ محمِد قبلي، وعند الشيخ مساعد غربًا، وعلى وابور المياه وشارع الرمش وعند حجر شعبان وعزبة الكداونه بحري البلد، بالرغم من أن خطب الجمعة كانت عن وجوب إطاعة ولي الأمر وعدم التظاهر والفوضى...

وتعالى هتاف الحبالصاوية:

قوم يا مصري وعلِّي الصوت	اللي هيهتف مش هيموت
صحي الخلق وهز الكون	مصر بلدنا مش هتهون
اسمع مني يا حبيب	مضى زمن الخوف والترهيب
كل شباب الحبالصة ينادي	الحرية ليكي يا بلادي
مصر بلدنا هتطلع فوق	لما يرجع المسروق
يابن الخال ويابن العم	حسني مبارك أصبح هم
لا مساومة ولا تدليس	كارت أحمر للرئيس
يا مبارك يا عميل	قتلت إخوتنا في التحرير
قالوا علينا شباب كنتاكي	وإحنا يا مصر بنحمي حماكي
علِّي وعلِّي وعلِّي الصوت	اللي هايهتف مش هايموت
ثورة ثورة حتى النصر	ثورة في كل شوارع مصر

فطوقت قوات الأمن المركزي الحبالصة وعنك من كل الجهات وأطلقت القنابل المسيلة للدموع بكثافة، كما أطلقت الرصاص المطاطي على المتظاهرين، ولاحق رجال أمن بملابس مدنية المتظاهرين وقاموا باعتقال المئات منهم.

في الوقت نفسه كان العشرات المؤيدين للرئيس يتظاهرون أمام مقر الحزب الوطني بالحبالصة بجوار المدرسة مرددين نفس هتافات زملائهم بمصطفى محمود المناهضة للثورة:

يا مبارك يا طيار	اوعى تسيبها تولع نار
استقرار استقرار	مش عايزنها تولع نار
يا مبارك ارفع رأسك	إحنا أهلك.. إحنا ناسك
عمره ما باع عمره ما خان	٣٠ سنة عايشين في أمان
حقك راجع يا طيار	والثوار هيجيبوا العار
كلمة آسف مش كفاية	على ٣٠ سنة حماية
هنشوف الذل ونشوف العار	بعد مبارك الطيار
صلح صلح	وإحنا معاك
حسنى مبارك يا طيار	اوعى تسيبها تولع نار
حسنى مبارك يابلاش	واحد غيره ماينفعناش
يا جمال قول لأبوك	كل الشعب بيحبوك
لو هما مليون	إحنا ٩٠ مليون

فجاءت سيارات الأمن المركزي ودهست المتظاهرين دون تفرقه بين مؤيد ومعارض مما خلف وراءهم الكثير من القتلى والمصابين، فقد كان هناك الكثير من أهالي الحبالصة وعنك من الذين بترت أطرافهم، والعديد ممن شجت رؤوسهم ووجوههم، وتنقل بينهم النساء والأطفال ليقدموا ما بوسعهم من مساعدة، متجاهلين تمامًا زجاجات المولوتوف التي كانت تنهمر عليهم بين الحين والآخر وتسقط فوقهم أو تنغرز في الأرض لتجعلها تشتعل كالبركان، فظهرت معجزة لم تخطر على خيال بشر.

فعلى حين فجأة انفجر حجر شعبان فخرج منه كنز مملوء بقطع من الذهب

وأحجار كريمة مرصعة بالماس واللؤلؤ والياقوت.

وخرج من داخل الكنز ديكًا لونه سماوي وأجنحته بألوان قوس قزح رفرف بجناحيه فوق المتظاهرين وهو يغني، وقامت الحور والصفصاف بدور الجوقة الموسيقية والثوار يرددون ورائه:

ويحكى أن

ولازم يحكى

وكان ياما كان

فارتفع البدر المكتمل تمامًا بصيحة الحرية مضيئًا قرية الحبالصة التي كانت غارقة في الظلمة، وهربت قوات الشرطة مذعورة فانكسر حاجز الخوف وتحول لطاقة حب، ففي الحب يشعر الناس بثقة تطال معها نجوم السماء، ويعتلون قمم الجبال الشاهقة في الخيال والإبداع.

فقد تجمع أهالي الحبالصة وعنك وكونوا لجنة شعبية بعد انسحاب الشرطة واتفقوا بعد إلغاء القبلية على تحويل كل دواوين (مناضر) العائلات إلى أماكن عامة تقام فيها اجتماعات فكرية حرة، ومكتبات تضم أنواع الكتب المختلفة، ومسابقات فنية وأدبية، وفصول محو أمية، ومستوصفات طبية، مع توفير مكان واحد يستقبل فيه العزاء كل أهالي القرية، وإنشاء جمعية خيرية باسم « جمعية الإيمان للتنمية »، وتكوين لجنة بالانتخاب كل عامين تشرف على صندوق يجمع مبلغ شهري من جميع الأهالي علاوة على التبرعات، وذلك لتنظيف القرية وتطويرها.

واجتمع أهالي الحبالصة وعنك في فناء المدرسة شرق البلد لمناقشة التصرف في الكنز الذي وجدوه في حجر شعبان في مشهد ديمقراطي حضاري لم يسبق له مثيل، فمنهم من رأي تقسيمه بالتساوي على كل أفراد القرية، ومنهم من رأى إقامة مسجد وكنيسة والتبرع بالباقي لأعمال الخير، بينما رأت أغلبية المصوتين

تجديد المدرسة وإقامة نادي رياضي ومصانع وشركات للعاطلين عن العمل للعمل بكرامة بدلًا من الخضوع والتذلل للكفيل، مع التبرع بجزء من الكنز للثورة التي أزالت الغشاوة من على عيونهم، أما الجزء الأثري فرجع لهيئة الآثار.

وكان الحمام الزاجل ينقل الرسائل والأخبار من الحبالصة وعنك من وإلى رفقائهم وممثليهم بميدان التحرير بعدما أوقفت وزارة الاتصالات من صباح اليوم خدمة الإنترنت والرسائل القصيرة والاتصال عبر الهواتف المحمولة في جميع أنحاء الجمهورية، فسافر عددًا من الأهالي ومعهم المبلغ الذي تبرعوا به من كنز حجر شعبان للثورة لشراء طعام ومياه معدنية وخيام وبطاطين للثوار في ميدان التحرير.

وقد وصل عدد القتلى من المتظاهرين في هذا اليوم إلى مئة قتيل واعتقال الآلاف بعد أن خرجوا ينادون بإسقاط النظام، ودهست سيارة دبلوماسية العشرات مما أدى إلى مقتل خمسة عشر شهيدًا وعشرات الجرحى في شارع القصر العيني بجوار السفارة الأمريكية وتم تحطيم سيارتين أخرتين مرتا بنفس الطريقة تحملان لوحات دبلوماسية في شارع القصر العيني.

ونزلت مدرعات الجيش إلى الشوارع بعد انسحاب الشرطة وتدمير كثير من مقراتها ومقرات الحزب الوطني على مستوى الجمهورية، ووقف المتظاهرون يتصورون سلفي على ظهر الدبابات ويغنون ويهتفون:

الشعب والجيش أيد واحدة الجيش والشعب أيد واحدة

وقد أطلقت الشرطة بعد انسحابها البلطجية والمساجين من أقسام الشرطة والسجون العامة لترويع المواطنين، ووقف المتظاهرون وجلهم من الحبالصة وعنك بالمرصاد لمحاولة سرقة المتحف المصري واستنجدوا بقوات الجيش لإنقاذ المتحف.

٩

كان اليوم بداية فبراير وقد عج ميدان التحرير بالمتظاهرين بعدما دعا الثوار إلى مليونية لإسقاط النظام.

كان الليل قد أرخى سدوله وبينما كان أحمس وبرهامي ومينا وعبد الجواد وعلاء خارجين من الخيام هاتفين مع رفقائهم:

مبارك ...عفوًا لقد نفذ رصيدكم

أستقيل أستقيل	وإحنا نحرس أرض النيل
ارحل ارحل يا خسيس	ارحل بقى خليك حسيس
ارحل بقى يا عم	خلي عندك دم
يا مبارك صحي النوم	نقوله سلام واللا شالوم
ارحل يعني امشي	ياللي مبتفهمشي
مبيفهمش عربي	كلموه بالعبري

أعلن الرئيس في خطابه الشهير أنه لم يكن ينتوي الترشح لفترة رئاسية ثانية فتفرق رفقاء الميدان بين مؤيد ومعارض.

وعندما شقشق الصباح في اليوم الثاني وبدأت الشمس تشرق في الأفق، خرج أحمس من الميدان ليطمئن على د. صلاح الزين أحد رفقاء النضال الذي

تجاوز عمره السبعين وأصيب بطلقة في ساقه اليمنى أثر مشاركته في جمعة الغضب، فوجده في منزله يستمع إلى سيمفونية بيتهوفن الخامسة ضربات القدر وهو يدندن فسأله أحمس:

هل تقصد يا دكتور أن الثورة تشبه هذه الألحان في صعودها حاليًا وستقضي عليها قوة أخرى بعد أن تهبط وتيرتها ثم ما تلبث أن تصعد مرة أخرى وهكذا دواليك؟!

نعم فما يحدث لحظات عابرة سينساها الناس مع صخب الحياة، وخطاب مبارك معقول وما وعد به من تعديلات دستورية وتداول سلمي للسلطة وعدم توريث الحكم يصلح كبداية للتحول الديمقراطي.

لماذا نقبل ببعض الإصلاحات بينما في إمكاننا إسقاط النظام والتخلص من كل ميراث الديكتاتورية، وهل نترك القتلة وأين حق الشهداء والمصابين أمثالك؟!

لان الناس دائمًا ما يريدون تغيير كل شيء ويتمنون في الوقت ذاته أن يبقى كل شيء على منواله وهذه هي المعضلة، ولأنها انتفاضة وليست ثورة، فالثورة تعني قيادة موحدة في أهدافها فشعاراتكم فضفاضة وليس هناك هدف يجمعكم في الميادين إلا إسقاط مبارك، كما أنه ليس لديكم خطة بعد إسقاطه فبعدها ستتصارعون وتتناحرون وتحدث فوضى لن يستفيد منها إلا قوتان على الأرض وهما الجيش والإخوان، وإذا حدثت أي انتخابات قبل أن تنظموا أنفسكم في أحزاب بأفكار وبرامج قادرة على إقناع قطاعات كبيرة من الناس فلن ينجح إلا أحفاد حسن الساعاتي البنا وهو التنظيم الوحيد المنظم الذي يمتلك قدرات مالية وتنظيمية هائلة. أما بالنسبة لحق الشهداء والمصابين فالاستقطاب السياسي سيجعل الناس تنساهم ولن يتذكرهم إلا أهلهم بحسرة.

أهداف الثورة واضحة وهي دوله مدنية حديثة وليست دولة دينية أو ذات

مرجعية تفرق بين المصريين، فلم يرفع الإخوان رفقاءنا في الميدان أي شعار ديني ولن نسمح بركوبهم الثورة، والأمة المصرية امة عظيمة سترفض أي وصاية من أي نوع فالحرية هي غايتنا والانتخابات ستأتي بالثوار الأحرار لتحقيق أهداف الثورة.

ما تقوله يوتوبيا (مثالية) لا تصلح إلا في المدينة الفاضلة التي حلم بها أفلاطون، فنحن لدينا تراث طويل من المعاناة والقهر والنفاق وما يصنع التغيير هو النخبة وليس عامة الشعب، فالناس دائمًا ما تقف بجانب الأقوى ويمكنهم تغيير مواقفهم بسهولة أسرع من تغيير ملابسك... سمعت أخر نكته:

«مرة شيطان دخل جسم مصري وطلع، فسألوه: «ليه طلعت ؟؟» فقال: الله يخرب بيته دوخني وجابلي الجلطة !! الصبح بيسرق، والظهر في الجامع، وفي درج مكتبه بانجو وحشيش، وفوق المكتب قرآن، ومحجب مراته، وبيجري ورا النسوان، وشايل سبحة بيسبح بيها بالنهار، وبيرقص بيها بالليل !! عليا الحرام ماكنت عارف هو اللي ساكن فيا ولا أنا اللي ساكن فيه».

فضحكا سويًا وخرج أحمس قاصدًا ميدان التحرير سيرًا على الأقدام بسبب حظر التجوال وإذا به في طريقه يرى بميدان مصطفى محمود مئات يمتطون الجمال والخيل والبغال يحملون مطاوي وسنج، ويلوحون بالسيوف والعصي والسياط ممسكين بيفط مكتوب عليها:

يا برادعي يا عميل تحكم مصر ده مستحيل

أيمن نور والإخوان عملاء الأمريكان

في البداية ظن أنهم بلطجية فتحسس محفظته فوجد بها خمسون جنيهًا وفكر أنه سيعطيهم النقود ويستدين أي مبلغ من أحد رفاقه في الميدان، ولكن ما أن اقترب منهم ورأوا أنه يتلفح بعلم مصر حتى سألوه إن كان من العيال

السيس الخونة في التحرير فرد عليهم بأنه ضد الخونة، فأشاروا إليه أن يبتعد.

وما أن وصل أحمس ميدان التحرير من ناحية عبد المنعم رياض حتى رأى رفاقه مينا وعبد الجواد وعلاء غارقين في دمائهم فنقلهم بمساعدة الثوار في عربة الإسعاف للمستشفى الميداني، ووقف مع الثوار بجانب خيمة اهالي الحبالصة وعنك يتصدى للبلطجية الذين اقتحموا ميدان التحرير من ناحية عبد المنعم رياض وكوبري ٦ أكتوبر ومن مدخل شارع طلعت حرب، والذين انهالوا ضربًا في جموع المتظاهرين وألقوا عليهم بالحجارة وقطع الرخام وزجاجات المولوتوف الحارقة بعدما اخترقوا الحواجز الحديدية التي وضعها الجيش لتأمين الميدان.

لم يجد أحمس ورفاقه وسيله للدفاع عن أنفسهم والتصدي للمعتدين إلا بتكسير أرصفة الميدان وتبادل قذف الحجارة، ففر المعتدين هاربين بعد أن تم إلقاء القبض على بعضهم وتسليمهم للجيش.

فوصلت مجموعة أخرى من راكبي الجمال من ناحية مدخل كوبري ٦ أكتوبر محملين بالعصي وقطع الحديد والحجارة والسكاكين وقنابل المولوتوف، وقد أتى معظمهم من نزلة السمان وقاموا بإلقاء قطع الحجارة والرخام على المتظاهرين فتصدى لهم مجموعة من الثوار تجيد فنون الكاراتيه والكونغوفو معظمها من أهالي الحبالصة وعنك من الذين تدربوا على فنون الدفاع عن النفس منذ الصغر عند الطاحونة ووابور رزق والمجرنه والتل والقيسي ومقام الشيخ محمِد ووابور المياه، فأحدثوا بالمعتدين إصابات ففروا هاربين.

رجع أحمس للمستشفى الميداني ليطمئن على رفاقه، فوجد مينا وعبد الجواد وعلاء مضرجين بدمائهم وقد فاضت أرواحهم، وعلى وجوههم ابتسامة تشرق وتتوهج لمعانًا في عيونهم وكأنهم يحتفلون باستشهادهم والإجادة بأرواحهم

الطاهـرة مـن أجـل الحريـة، فصـرخ صرخـة مدويـة امتزجـت بشـهقة عميقـة قويـة كأنـه يشـهد العالـم أن أمتنـا المصريـة أمـة خالـدة لا تفنـى، ولسـنا شـعبًا مـن الجبنـاء وعبيـدًا لمـن غلـب كمـا يـروج مؤيـدي الطغـاة والمسـتبدين عبـر التاريـخ. وتعالـى هتـاف الثـوار:

الجدع جدع والجبان جبان

يالا يا جدع بينا على الميدان

لـم يكتفـي مؤيـدي الاسـتبداد بمـا فعلـوه نهـارًا فـي موقعـة الجمـل، فعندمـا تـوارت الشـمس وراء الأفـق بـدؤوا بإطـلاق الأعيـرة الناريـة والمطاطيـة والخرطـوش علـى المتظاهريـن، وقـام بعـض القناصـة لابسـين أقنعـة تخفـي وجوههـم باعتـلاء أعلـى أسـطح البنايـات المطلـة علـى الميـدان (مجمـع التحريـر والجامعـة الأمريكيـة والمتحـف المصـري) وقامـوا بإطـلاق الأعيـرة الناريـة وإلقـاء زجاجـات المولوتـوف بكثافـة علـى المتظاهريـن...

نظـر أحمـس حولـه فوجـد رفيـق كفاحـه برهامـي مسـجى علـى الأرض مقطعـه يديـه ورجليـه ويحتضـن علـم مصـر بمرفقيـه علـى قلبـه وهـو يهتـف:

حرية حرية

يسقط يسقط الاستبداد

فاحتضنـه أحمـس وهـو يبكـي بحرقـة فأوصـاه برهامـي بـألا يتخلـى عـن حلـم الحريـة وأن يخبـر الأجيـال القادمـة مـن امتنـا المصريـة عـن أن الحيـاة أسـطورة عظيمـة، وأن يحكـي عـن هـذه الملحمـة التاريخيـة ثـم سـكنت روحـه فـي سـلام.

ظل أحمس يهتف وهو يبكي بحرقه حتى كادت حنجرته تتمزق:

يا برهامي يا حرية

مصر يا أم ولأدك اهم

دول علشانك شالو الهم دول يفدوكى بالروح والدم

كان الليل قد انتصف بينما لم يتوقف إطلاق الرصاص الحي على المتظاهرين والذي استمر حتى انبلاج فجر يوم الخميس، فكانت حصيلة القتلى أحد عشر قتيلاً وألفي جريحًا جريمتهم الوحيدة أنهم حلموا بالحرية.

بيد أن الثوار مؤمنون بأن حلم الحرية الذي يناضلون من أجله لن يندحر أبدًا يمكن أن يتداعى الحلم متقهقرًا كما تتداعى حبات الرمل أمام عاصفة ثلجية، وقد يحصدهم القتل بالألوف، ولكن كحصيلة أسنان التنين سينبثق مكانهم ألوف أخرى وعلى شفاههم صيحة الثورة.

وظل هناك سؤالاً محيرًا يتبادر إلى ذهن أحمس ورفاقه ولم يجيب عليه أحد وهو:

كيف وصل الصبية الأوغاد بجمالهم وعصيهم وأسلحتهم البيضاء كل هذه المسافة من عزبة السمان حتى ميدان التحرير وكان في طريقهم عشرات اللجان الشعبية ومدرعات القوات المسلحة ؟ ولماذا تم التخطيط لموقعة الجمل في هذا اليوم بالذات بعد أن انقسم الميدان ما بين مؤيد ومعارض لخطاب مبارك ؟!

١٠

انقشع الليل الطويل الذي خيم على أمتنا المصرية لثلاثين عامًا في لحظة سحرية، فقد أعلن نائب الرئيس عمر سليمان في بيان قصير يوم الجمعة ١١ فبراير قرار الرئيس تخليه عن منصبه وتكليف المجلس الأعلى للقوات المسلحة بإدارة شؤون البلاد.

وما أن استمع الناس للبيان حتى عمت الأفراح والزغاريد الأمة المصرية من أسوان إلى الإسكندرية، وعلق أهالي الحبالصة وعنك أعلام مصر على بلكونات بيوتهم التي أزينت وطليت جدرانها باللون الأزرق الفاتح لون الحرية، وأطلقت النساء الزغاريد ابتهاجًا بانتصار الثورة، والجميع يهتفون وقلوبهم مفعمة بالأمل والسعادة:

دللعو يا دللعو	ومبارك شعبه خلعه
افرح افرح يا شهيد	النهارده يوم العيد
يا شهيد نام وارتاح	واحنا كملنا الكفاح
مصر قالتها بصوت مسموع	حسني مبارك بقى مخلوع
يا دستور يا دستور	خلي بلدنا تشوف النور
الشعب خلاص	اسقط النظام
الشعب يريد	محاكمة النظام

مصر حرة حسنى بره

الجيش والشعب هنكمل المشوار

حرية حرية

وعندما بدأ الليل يرخي سدوله بدأ الحبالصاوية يطوفون الحبالصة وعنك مشعلين شموع الحرية ومرتدين تيشرتات مكتوب عليها «الحبالصة أسرة واحدة بلا عائلاتS.

وانفجر عالم اللاوعي السعيد لدى الحبالصاوية فانهمك الكثيرين ممن يلعبون السيجة على الأرض وممن يلعبون الدومنيو والطاولة والشطرنج على المقاهي، في إحصاء التركة التي يظنون أنها ستؤول إليهم بعد تقسيم ال ٧٠ مليار التي أعلن الثوار أنها مع الرئيس في بنوك سويسرا، مع إضافة مبالغ يخمنون أنها مع باقي نظامه ويفكرون بمشروعاتهم المستقبلية والجنة الموعودة والرخاء الذي سيعم البلاد.

وانتشرت إذاعة قصيدة هشام الجخ في جميع مقاهي الحبالصة وعنك وفي اسطوانات الميكروباصات والتكاتك وسماعات هواتف الفلاحين في الحقول:

خبئ قصائدك القديمة كلها

مزق دفاترك القديمة كلها

واكتب لمصر اليوم شعرًا مثلها

لا صمت بعد اليوم يفرض خوفه

فأكتب سلام النيل مصر وأهلها

عيناك أجمل طفلتين تقرران

بأن هذا الخوف ماض وانتهى

ويداك فدانان عشقٍ طارحٍ ما زال وجهُكِ في سَماهُ مُؤَلَّها

كانت تداعبنا الشوارع بالبرودة والصقيع

ولم نفسر وقتها !!

كنا ندفئ بعضنا في بعضنا

ونراك تبتسمين ننسي بردها !!

وإذا غضبنا كشفت عن وجهها

وحيائنا يأبى يدنس وجهها !!

لا تتركيهم يخبروك بأنني متمرد... خان الأمانة أو سها

إني أعيذكِ أن تكوني كالتي

نقضتْ على عَجَلٍ وجهلٍ غَزْلَها

لا تتبعي زمنَ الرُوَيْبضةِ الذي فقدتْ... على يده الحقائقُ شكلَها

لا تتركيهم يخبــروك بأنني أصبحتُ شيئاً تافهـًا ومُـوَجَّـها

فأنا أبن بطنك وأبن بطنك... من أراد.. ومن أطال.. ومن أقر... ومن نهى !!

صمتت فلول الخائفين بجبنهم

وجموع من عشقوكي قالت قولها.

لـم يكـد الفجـر يلـوح بوجهـه الـوردي وكان أحمـس مثقـل جفنيـه بالنعـاس حتـى اسـتيقظ مـن نومـه علـى صـوت صخـب قـوات الأمـن المركـزي وهـي تحاصـر منزلـه فسـأل الضابـط المكلـف بالقبـض عليـه عـن التهمـة.

كنـت تحلـم بالأمـس أحـلام غيـر مشـروعة تزعـزع أمـن واسـتقرار الوطـن وسـلامه الاجتماعـي وتشـوه صورتـه، عـلاوة علـى حلمـك بقلـب نظـام الحكـم، وهـذه التهـم ترقـى إلـى الخيانـة العظمـي.

حلمـي دائمًـا أن ينعـدل نظـام الحكـم ولا ينقلـب لأن الديكتاتوريـة هـي مـن قلبتـه رأسًـا علـى عقـب، وجمـال صـورة الوطـن تكمـن فـي أن يشـعر جميـع أبنائـه بالحريـة والكرامـة والعدالـة ويعيشـون فـي سـعادة وأمـن، لكـن كيـف علمتـم بالحلـم ؟

ألم تعلم يا غبي أن سيادة فخامة معالي الرئيس يعلم كل شيء حتى الأحلام غير المشروعة التي تفكرون بها يا معشر المعارضين الخونة؟ وقد أمر بالقبض عليكم لتطهيركم من هذا المس الشيطاني حفاظًا على المواطنين الشرفاء من العدوى.

وبينما كانت قوات الشرطة تقتاد أحمس إلى عربة الترحيلات غفي قليلًا فنظر أمامه بينما النوم ما زال يداعب أجفانه، فوجد أصدقائه برهامي ومينا وعبد الجواد وعلاء يقودون مظاهرة صاخبة أمام كوبري الحبالصة هاتفين:

عمر السجن ما غير فكره　　عمر القهر ما أخر بكره

جدو أحمس اصحى وشوف　　حظ بلدنا بقى منحوس

صحي الخلق وهز الكون　　الحبالصة بلدنا مش هتهون

وانضم إليهم الآلاف يطالبون بحقهم في الحلم بالحرية مرددين أمثال تشير إلى سوء حظهم بعد سرقة حلمهم مثل « قليل البخت يلاقي العضم في الكرشه».

فنظر إلى زوجته وقال لها يبدو أنني نمت نومًا عميقًا.

ما هو أنا قولت لك مليون مرة يا حبيبي أن تقلع عن شرب الشاي التقيل والجعة بعد أكل الفسيخ والرنجة في غير عيد شم النسيم لكي لا تصاب بلعنة أجدادك التي جعلتك تحلم أحلام ممنوعة أهو رحنا في داهية، علينا أن نبحث عن واسطة لنستسمح سيادة الرئيس لعله يرأف بحالنا ويسمح لنا أن نعيش مثل باقي المواطنين الشرفاء، لا نرى إلا ما يراه فخامته ونشيد بانجازاته وإلهامه وعطفه وحنانه وقيادته الحكيمة لبر الأمان، ونردد ما يقولونه بإخلاص عن حروب الجيل الرابع والخامس والتاسع عشر ومجلس قيادة العالم والمؤامرة الصهيوامريكية الماسونية الكونية لعله يرضى عنا ومن يرضى عنه فإنه يعيش أمنًا مستقرًا وتتوقف نهائيًا عن هذه الأحلام التي أصابتك بالجنون... اللهم بلغت اللهم فأشهد.

بعض ما قيل عن ثورة يناير

- لا جديد في مصر فقد صنع المصريون التاريخ كالعادة.
(برلسكوني رئيس وزراء إيطاليا)
- يجب أن نربي أبناءنا ليصبحوا كشباب مصر.
(الرئيس الأمريكي باراك أوباما)
- لأول مرة نرى شعبًا يقوم بثورة ثم ينظف الشوارع بعدها.
(شبكة CNN الإخبارية)
- اليوم كلنا مصريين.

(ستولتنبرج رئيس وزراء النرويج)

- شعب مصر أعظم شعوب الأرض ويستحق جائزة نوبل للسلام.
(هاينز فيشر رئيس النمسا)
- أتطلع إلى زيارة مصر والحديث مع الذين قاموا بالثورة.
(وزير الخارجية الألماني فستر فيله)
- قوة الشعب تصنع التاريخ في المصر.
(افتتاحية ديلي تليجراف البريطانية)
- العالم يتحول للأفضل لأن هناك شعوبًا تخاطر بأرواحها لجعله أفضل...
شكرا يا مصريين.
(الروائي البرازيلي باولو كويلو)

يحلم أحمس أحد أبناء قرية الحبالصة بأحداث مثيرة ومشوقة منها انعقاد محكمة فرعونية لمحاكمة الرئيس يعلن خلالها قضاة المحكمة (أمون ، ورع ، وأوزير ، وماعت) بأنه لوث مياه النيل ، وحكم بالفساد والديكتاتورية لمدة ثلاثين عامًا ، وانتهك قيم العدالة ، وفقدت الأمة المصرية في عهده هويتها وبوصلتها الحضارية ، مع انتشار الطائفية والكذب وسيادة الظلم والخوف والقهر، فيصدر القضاة حكمهم النهائي غير القابل للطعن بانتزا ع علامة العنخ (مفتاح الحياة) منه ، فيستيقظ أحمس راكضًا من الحبالصة لميدان التحرير ليشترك مع رفاقه في ثورة يناير.

تتناول الرواية الأحداث التي أشعلت شرارة ثورة يناير ، وأهم الفعاليات والمظاهرات التي قامت بها قوى المعارضة قبل الثورة ؛ وفي إحدى المظاهرات يفاجأ أحمس بالصدفة بوجود حبيبته أمال وهي تسحل من قوات الأمن فيسترجعا علاقتهما التي انقطعت لأكثر من عشر سنوات بسبب خلاف عائلي قبلي ، ومن ثم تعالج الرواية مسألة التعصب القبلي والديني ، وعند بداية أحداث يناير يستعيد أهالي الحبالصة روحهم المصرية الأصيلة بعد أن يتمزق ستار الظلام الكثيف الذي حجب عنهم نور المعرفة مشاركين أبناء وطنهم في الثورة خاصة بعد استشهاد فتاة الحبالصة أمال ، مما يؤدي إلى تبرؤوهم من القبلية وإلغاء فكرة العائلات معلنين أن « الحبالصة أسرة واحدة حيث الكل في واحد «.

وتحكي الرواية عن عادات وتقاليد أهالي الحبالصة قبل انتشار الأفكار المتطرفة وأهم معالمها الشيخ محمِد الذي كان يلتف حوله الناس ويوقدون الشموع كل جمعة مساءً ، وحجر شعبان الذي يفد إليه الناس من كل القرى المجاورة لينالوا بركته بتدحرجهم على الأرض بجانبه

واعتقاد الأهالي بأن به ديكًا مرصعًا بالذهب إذا استطاع الناس قتله سيجدون كنزًا لكن لا احد يستطيع لأنه يختبئ مجرد ظهور الناس ، وأن أجدادهم حاولوا من قديم الزمان أن يشيلوه فصرخ ونزف دمًا.

وفي أوج أحداث الثورة يوم جمعة الغضب ينفجر حجر شعبان فجأة فيخرج منه كنز مملوء بقطع من الذهب وأحجار كريمة مرصعة بالماس واللؤلؤ والياقوت... ويخرج من داخل الكنز ديكًا لونه سماوي وأجنحته بألوان قوس قزح يرفرف بجناحيه فوق المتظاهرين وهو يغني ، وقامت الحور والصفصاف بدور الجوقة الموسيقية والثوار يرددون ورائه:

ويحكى أن

ولازم يحكى

وكان ياما كان

وتتناول الرواية من خلال أحداثها أول أيام ثورة يناير ، وجمعة الغضب ، وموقعة الجمل ، ويوم التنحي.

ثم يستيقظ أحمس في النهاية على صوت صخب قوات الأمن المركزي وهي تحاصر منزله للقبض عليه لكونه يحلم أحلام ممنوعة.